الثورة الصربـــية وقيام دولة الصرب القومية (١٨٣٣-١٨٠٤).

كانت صربيا في مطلع القرن التاسع عشر بلداً متأخراً خاضعاً للاحتلال العثماني يعيش الاتراك في مدنهِ فقط أما الريف فيقتصر سكانهِ على الصربيين ، وكان يضم الى جانب الفلاحين الذين يؤلفون الاغلبية الساحقة من سكانهِ بيد ان نشاط هؤلاء كان موجهاً لسد حاجات المدن الصربية فقط . ولمتكن الاراضي الصربية من الناحية الادارية ففي حين كانت نواتها الاساسية تؤلف باشوية قائمة بذاتها هي باشوية بلغراد كانت اجزاؤها الاخرى موزعة على ثلاث باشويات هي البوسنة وفيدين وليسكوفاتس[١] .

ان التطور الاقتصادي والاجتماعي كان يجري في الريف الصربي فبدأت العلاقات تضمحل وظهرت بين الفلاحين عناصر تشتغل بالتجارة وتربية الماشية لأغراض البيع وبذلك تكونت في الريف فئة ميسرة أصبحت ذات نفوذ كبير ولا سيما ان ممثلي الادارة الذاتية في الريف، وان هذا التطور الاقتصادي والاجتماعي كان يصطدم بالسيطرة العثمانية وبالاستغلال الذي فرضه العثمانيون على صربيا ولذلك نجد الصربيين يعملون بكل الوسائل للتخلص من السلطة العثمانية التي رأوا انها مساس بكرامتهم الوطنية وسلب لذاتهم القومية[٢].

كانت بلاد الصرب اثناء القرن الثاني عشر مسرحاً لمعارك متكررة بين النمسا والدولة العثمانية خلال الاعوام(١٧٩١،١٧٨٨،١٧٣٩،١٧٣٧،١٧١٨،١٧١٦) وقد ارتبط مصير الصربيين بمصير اسرة الهابسبورج التي تحكم النمسا وان المعارك وما ارتبط بها من فوضى واضطرابات دفعت مجموعات كبيرة من الصربيين الى الهجرة الى المناطق النمساوية في البلقان ولاسيما جنوب المجر[٣] ، اذ استطاع الصربيون من الاتصال الوثيق بالأحداث التي

تجري في بلادهم وكان لهم تأثير مهم على الحركة القومية وعلى التنمية الثقافية وعلى ادارة دولة الصرب القومية في القرن التاسع عشر[٤] .

في اوائل القرن التاسع عشر وبالتحديد عام ١٨٠٤م، ظهرت أولى الانتفاضات الوطنية في صربيا ، وكانت موجهة في الاساس ضد الانكشارية المحلية والاعيان ، وقام الصربيون بتشكيل فصائل مسلحة بدأت تشن كفاحاً مسلحاً ضد العثمانيين وعقد الثوار اجتماعاً في بداية شباط ١٨٠٤م، تقرر فيه القيام بانتفاضة عامة وتنصيب جيورجي بتروفتش المعروف في صربيا باسم قرة جيورجي زعيماً لها[٥] .لقد كان قرة جيورجي تاجراً منحدراً من اوساط الفلاحين شارك في الحرب الاخيرة بين النمسا والدولة العثمانية فأكسبهُ ذلك خبرة عسكرية كانت الى جانب شجاعتهِ المشهودة وذكائهِ الفطري جذبت اليه حب الناس وتعاطفهم[٦].

اتخذت الانتفاضة في البداية طابعا جماهيريا اذ شملت كل باشوية بلغراد واخذ عدد الثوار يزداد بسرعة حتى بلغ في نهاية آذار ١٨٠٤ مايقارب من (٤٨) الف شخص، وتألفت القوة الاساسية للانتفاضة من الفلاحين في حين كانت قيادتها من ممثلي الادارة الريفية المحليين ورجال الدين وكبار التجار[٧] . وقد تمكن الثوار من تحقيق انتصارات كبيرة وتمكنوا حتى اواسط آذار ١٨٠٤ من السيطرة على تسع من أصل احدى عشرة منطقة تتألف منها باشوية بلغراد كما فرضوا حصارهم على اكبر مدن الباشوية بلغراد وسميديريفو وبوزاريفاس[٨] .

ادرك قادة الثورة بانهم لن يستطيعوا بجهودهم الخاصة وحدها ان يحققوا النصر واجبار الحكومة العثمانية على الاقرار بمطاليبهم ولذلك كانوا يتطلعون الى مساندة الدول الاوروبية الكبرى ، وتوجهوا في بداية الامر الى النمسا المجاورة لصربيا ، ومع ان موقف النمسا لم يكن بمستوى يطمح اليه الثوار الا انهم لم يقطعوا صلتهم بالحكومة النمساوية بل على

العكس دأبوا على تعزيز هذه الصلة حتى ان قرة جيورجي اقترح رسمياً على حكومة النمسا ان يضع الاراضي الصربية تحت سلطة الامبراطور النمساوي بعد تحريرها من العثمانيين(٩). بيد ان موقف النمسا هو الحفاظ على الحكم العثماني الذي لم يعد خطراً على النمسا ، كما كانت مشغولة مع نابليون مما أصاب الصرب بخيبة أمل شديدة من موقف فيينا ، فتوجهوا الى القيصر الروسي فتقربوا منه مما ادى الى التدخل الروسي في البلقان وهذا ما كانت النمسا تخشاه والتي كانت تنوي بسياستها ابقاء العثمانيين للإقصاء الروسي في البلقان(١٠).

عارضت النمسا وبشكل قاطع مسألة تكوين دولة صربية بحماية روسيا ، ومن ثم أصبحت محل خلاف بين روسيا والنمسا وفي عام ١٨٠٨م استطاع كارادیوديه بإعلان نفسهِ رئيساً على جميع الصرب وأسس نظام حكم صربي جديد يعتمد على الارث وكان رئيس وزراء النمسا مترنيخ قد قال بشأن صربيا " ان صربيا الوليدة لا تعبر عن شيء سوى انها لعبة بين النمسا وروسيا وبالنسبة لما يحدث فخير للصرب البقاء بين كنف الاتراك" وبالرغم من صعوبة الموقف الا ان قوات الصرب كانت قادرة على الاحتفاظ بالسيطرة على الموقف كما كانت الظروف في صالح الصرب وذلك للأسباب الاتية :-

١-منذ ان انشغلت الادارة العثمانية بالصراع على العرش والذ انتهى بخلع السلطان سليم الثالث وصعود السلطان محمود الثاني للحكم ، لم يكن بإمكان السلطان الجديد تجريد حملات عسكرية ضد متمردي الصرب بل كان اكثر ميلاً للتفاوض للتوصل الى تسوية.

٢-واصل الروس تعاونهم مع الصرب وكان من اهم نتائجها استيلاء الروس على مدن اسماعيل ،دسلستريه ، رستجق ، نيقوبولي ، بازارجق خلال عامي ١٨٠٩-١٨١٠ ، مما جعل الصرب يشعرون بأن انتصارهم في قضيتهم بات قريباً .

ان الظـروف الدوليـة ادت الـى تغيـر موقـف روسـيا فقـد اخـذت العلاقـات الروسية– الفرنسية بالتوتر الى الحد الذي اصبح قيام الحرب بينهما امراً حتمياً ، لذلك كان لابد لروسيا ان تعقد الصلح مع الدولة العثمانية استعداداً للحرب الجديدة مع فرنسا ، وقد وافقت روسيا ان تبقى سيادة السلطان قائمة في صربيا وان يدفع الصربيون جزية معتدلة ولكنها أصرت على ان تقوم في صربيا ادارة مدنية ذاتية مستقلة عن الباب العالي[١١] وافقت الدولة العثمانية على التفاوض مع روسيا ووقعوا معاهدة بوخارست في ٢٨ آيار ١٨١٢ وبذلك انتهت الحرب الروسية –العثمانية التي كانت قائمة منذ عام ١٨٠٦[١٢] .

نصت المادة الثامنة من المعاهدة على تدمير القلاع والحصون التي اقامها الصربيون اثناء الثورة ما لم تكن لها قيمة معينة لدى الحكومة العثمانية وتعاد الاجهزة العثمانية والمنشآت التي كانت قائمة في البلاد قبل عام ١٨٠٤ وتكون تحت حماية القوات العثمانية والتزمت الدولة العثمانية بالعفو عن جميع الرعايا العثمانيين الذين شاركوا في الحرب وعن المعارضة الصربية ومنحهم حقوق الحكم الذاتي وان يقوم الصربيون بإدارة شؤونهم الخاصة وتثبيت الضرائب وجمعها ، وقد أقرت المعاهدة ان الصربيين هم رعايا للسلطان يدفعون لهُ الجزيـة وحـددت مقـدار الجزيـة التـي يـدفعونها للسـلطان سـنوياً[١٣] . ان التقـارب العثماني – الروسي أزعج الفرنسيين الذين عدوا تصرف الباب العالي خيانة للروابط التقليدية التـي تـربط الجـانبين العثمـاني والفرنسـي ممـا اتـاح لروسـيا تركيـز قواتهـا لمقاومـة الزحـف الفرنسي باتجاه موسكو[١٤] الذي فشل في تحقيق اهدافهِ .

لم ترض معاهدة بوخارست الثوار الصربيين الا انهم دخلوا في مفاوضات في بداية عام ١٨١٣ مع الحكومة العثمانية من أجل تنفيذ ما جاء فيها فيما يخص صربيا، وان كل ما قدمته روسيا هو مجرد دعم دبلوماسي ، واستطاعت القوات العثمانية ان تقضي على

مقاومة الثوار وتقمع الانتفاضة وتعيد السلطة العثمانية الى صربيا واضطر قرة جيورجي الى الهروب الى النمسا ، ومما ساعد العثمانيين على ذلك اخذت الهوة بالاتساع بين قادة الانتفاضة والفلاحين الصربيين من جهة والخلافات التي اخذت تشتد بين قادة الانتفاضة انفسهم من جهة اخرى وبهذا انتهت ثورة الصرب الاولى بعد حالة من الحروب دامت تسع سنوات استنزفت خلالها مصادر الصربيين بشرياً ومادياً[١٥] .

قمعت الثورة الصربية الا انها حققت الكثير اذ تم تأسيس اول حكومة صربية منفصلة عن الدولة العثمانية ولقيت انتباه دول العالم ولاسيما روسيا اذ ان مستقبل الحكم الذاتي للصربيين مرهون بموقف روسيا وعلى مدى رغبتها في استعادة الحكم الذاتي للصربيين[١٦] .وقد ساءت احوال الصربيين مما ادى الى قيام انتفاضة جديدة في منطقة تشاتشاك في خريف ١٨١٤ بيدان السلطات العثمانية تمكنت من اخمادها وحاول الصربيون الحصول على اعتراف الدول الاوربية المجتمعة في مؤتمر فينا بيد ان محاولتهم باءت بالفشل الامر الذي دفع الصربيون الى القيام بانتفاضة جديدة وانتخب لزعامتها ميلوش ابرينوفتش وهو احد قادة الانتفاضة الاولى الذي تخلى عن سياسة التعاون مع العثمانيين وتولى زعامة الثورة ، جرت مفاوضات ومحادثات تمخضت عن عقد هدنة بين الجانبين في آب ١٨١٥ ،وتم الاتفاق بينهما على :-

١-الاعتراف بميلوش اميراً على صربيا وعدم التدخل في شؤون البلاد الداخلية اذ يقتصر دور الدولة العثمانية على المراقبة وتتمركز حاميتها في الحصون والقلاع .

٢-انشاء مجلس قضائي في بلغراد يكون بمثابة محكمة عليا في البلاد وان يزود بموظفين صربيين وعثمانيين رسميين لتولي القضاء.

٣-ان يتولى مسؤولون صربيون مهمة جمع الضرائب المقررة .

٤-يتم منح الصربيون ميزات التعرفة الكمركية والتجارية .

٥-يتم ابعاد عائلات الانكشارية عن الاراضي المملوكة للصربيين .

٦-ان يعمل مسؤولون صربيون وعثمانيون معاً في ادارة شؤون المدن والمواقع العسكرية.

٧-يتم اصدار العفو العام[١٧] .

تم اصدار فرمان جديد في ١٥ آب ١٨٣٠م، وقد تم اعتراف الباب العالي بميلوش اميراً وراثياً لصربيا. لقد نص فرمان ١٨٢٩ و١٨٣٠ على أن تكون السلطة العليا في الامارة الصربية للدولة العثمانية وتم تعيين المبلغ الواجب على صربيا دفعهُ مقابل تمتعها باستقلال ذاتي داخلي كامل .ووعد الجانب العثماني بموجبها بإعادة المناطق المقتطعة الى صربيا، كما نص الفرمان على حق الامير بان تكون لهُ قوات عسكرية للمحافظة على النظام وأكد على حق الصربيين في ان يتاجروا بحرية في الامبراطورية العثمانية وان يؤسسوا مستشفيات ومدارس ومطابع واقتصر وجود الحاميات العثمانية على ست قلاع ولم يكن من حق الاتراك العيش خارج القلاع وكان عليهم ان يبيعوا ممتلكاتهم الموجودة خارجها[١٨] . وأخذ ميلوش بضم اجزاء من النواحي الست المقتطعة رغم معارضة الباب العالي ثم دبر اشعال انتفاضة في شرق صربيا فاضطرت الحكومة العثمانية الى اصدار مرسوم في تشرين الثاني ١٨٣٣ اقرت فيهِ بضم النواحي الست الى الامارة الصربية الامر الذي ادى الى زيادة مساحتها بمقدار الثلث ، وقد تحولت صربيا الى امارة ذات امتيازات وتتمتع بالاستقلال الذاتي ضمن الامبراطورية العثمانية وقد ظل هذا الوضع قائماً حتى عام ١٨٧٨م ، عندما قرر مؤتمر برلين الاعتراف بها دولة مستقلة عن الدولة العثمانية [١٩] .

الهوامش:-

(١) هاشم صالح التكريتي ، المسألة الشرقية ، المرحلة الاولى ١٧٧٤-١٨٥٦ ، ط٢، بغداد ،دار ومكتبة عدنان، ط ٢، ٢٠١٦، ص٥١ .

(٢) المصدر نفسهُ ، ص٥٢ .

(٣) تشارلز بيلافتش، تفكيك اوروبا العثمانية ، ترجمة الدكتور عاصم الدسوقي ،دار العالم الثالث ، القاهرة ، ط١، ٢٠٠٧، ص١٥-٢٤ ؛

(٤) peter F. sugar :southeastern Europe under Ottoman Rule,1354-1804, University,OF Washington Press,Third, Printing1996,Vol V,P.P.271.

(٥) محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق احسان حقي ،ط١، ١٨٨١ ،دار النفائس ، بيروت، ص

(٦) هاشم صالح التكريتي ، المصدر نفسهُ ، ص٥٣ .

(٧) المصدر نفسهُ ، ص٥٣ .

(٨) المصدر نفسهُ ، ص٥٤ .

(٩) William Miller, The Ottoman Empire and its Successors 1801-1927,London and Edinburgh 1966,p.50.

(١٠) ايمان علاء الدين ابراهيم صائغ، العلاقات العثمانية- النمساوية ١٨٠٤-١٨٦٨ ، اطروحة دكتوراه مقدمة الى جامعة ام القرى / كلية الشريعة والعلوم الاسلامية ،٢٠١٥ ، ص٧٣.

(١١) هاشم التكريتي ، المصدر السابق ، ص٦٩.

(١٢) المصدر نفسهُ ، ٦٩ .

(١٣)المصدر نفسهُ ، ص٦٩ ؛ ايمان علاء الدين ، المصدر السابق ، ص٧٧ .

(١٤)ايمان علاء الدين صائغ ، المصدر السابق ، ص٧٧ .

(١٥) تشارلز بيلافيتش ، المصدر السابق ، ص٤٨ .

(١٦) ايمان علاء الدين ، المصدر السابق ، ص٧٨ .

(١٧) محمد فريد بك، المصدر السابق ، ص٤٠٣ .

(١٨) هاشم التكريتي ، المصدر السابق ، ص٧٣ .

(١٩) المصدر نفسهُ ، ص٧٣ .